الآن ملكت مصر

ونعود إلى الألفي عدو الباشا اللدود الذي فشل في اقتحام دمنهور، وتبرم من حوله من الجنود والعربان لعدم وجود أي إمدادات، وكان ذلك أوان القيظ، وليس ثَمَّ زرع ولا نبات فضاقت على جيوشه الناحية، وقد طال انتظاره للإنجليز، ويقترب منه شيخ القبيلة قائلًا:

- لن نستطيع الاستمرار في هذا المكان لفترة أخرى وعلينا الرحيل!

فيقول الألفي:

- اصبروا؛ لم يبق إلا قليل..
- إما أن تنتقل معنا إلى جهة قبلي، فإن أرض الله واسعة، وإما أن تأذن لنا بالرحيل في طلب القوت!
- فهل هذا ما وعدتموني به؟
- وأين ما وعدتنا أنت به؟ أين الإنجليز؟
- إنهم في الطريق..
- لم يعد رجالي يصدقون ذلك.

فما كان وسع الألفي إلا الرحيل مكظومًا مقهورًا من معاندة الدهر في بلوغ المآرب، وسار كئيبًا حزينًا، ومعه القوات العديدة التي كان يحسب أنها تصل به إلى عرش مصر ليحولها إلى دولة كبرى ناهضة متقدمة كما وعده

الإنجليز، فالفرق بينه وبين محمد علي أن كلاهما قرر أن ينهض بمصر، ولكن أحدهما على الطريقة الفرنسية، والآخر على الطريقة الإنجليزية، وكل منهما يريد أن يحولها إلى مشروعه الخاص الذي ينعم به ويحقق ذاته وطموحه الذي لا حدود له، ولكن كان ما يميز محمد علي أنه راهن على قوة الشعب، ولقد كان كلا الرجلين من ذلك النوع من القادة الذين لا يتكررون كثيرًا في تاريخ مصر، والملك بيد الله يؤتِه من يشاء من عباده.

رحل الألفي على أية حال، وسار معه جيشه الضخم المكون من ستة آلاف من العرب، وستمائة من فرسان المماليك، وثمانمائة من الترك والنوبيين، ومعه من آلات القتال عشرة مدافع، وعدد لا يُحصى من البنادق والأسلحة، وكانت الميرة والمئونة تحملها آلاف عدة من الإبل. ويقرر محمد علي باشا الاستعداد لقتال الألفي مستغلًا انخفاض روحه المعنوية هو وقواته، ويشيع الباشا أنه سيقود الجيش بنفسه هذه المرة.

ولننتقل كعادتنا إلى بعض ما كتبه الجبرتي عن ذلك إذ قال:

"وفي يوم الاثنين عاشره، وصلت الأخبار بوصول الألفي إلى ناحية الأخصاص، وانتشار جيوشه بإقليم الجيزة، وكان الباشا معزومًا ذلك اليوم عند سعودي الحناوي بسوق الزلط وحارة المقس، وركب قبيل العصر وذهب إلى بولاق، وأمر العساكر بالخروج ولا يتخلف أحد لخامس ساعة من الليل، وعدا بمن معه إلى بر أمبابة. وفي ليلة الأربعاء، وقع بين الألفي والعسكر معركة، وانحاز العسكر وتترسوا بداخل الكفور والبلاد، ووصل

منهم جرحى إلى البلد، واستمر الأمر على ذلك وهم يهابون البروز إلى الميدان وأخصامهم لا يحاربون المتاريس والحيطان. وفي يوم الثلاثاء، ركب الألفي بجيوشه وتوجه إلى ناحية قناطر شبرامنت، فلما عاينهم الباشا ومن معه مارين، ركب بعسكره من ناحية كفر حكيم وما حوله، وساروا إلى جهة الجيزة ونصب وطاقه (معسكره) بحريها، وباتوا تلك الليلة وعملوا شنكًا في صبحها وهم يشيعون هروب الألفي، والحال أنه مر في جيش كثيف وصورة هائلة، وقد رتب جنوده وعساكره طوابير وبين يديه النظام الذي رتبه على هيئة عسكر الفرنسيس، ومعهم طبول بكيفية خلعت قلوبهم وعقولهم، والباشا واقف بجيوشه ينظر إليه تارة بعينه وتارة بالنظارة، ويقول هذا طهماز الزمان ويتعجب، وقال لطائفة الدلاة تقدموا لمحاربته وأنا أعطيكم كذا وكذا من المال، فلم يجسروا على التقدم لما سبق لهم معه.

وفي يوم الخميس، حضر أشخاص من العرب إلى الباشا، وأخبروه أن الألفي قد مات يوم وصوله إلى تلك المحطة، وذلك ليلة الأربعاء ، ونزل به خلط دموي فتقيأ ثم مات، وذلك بناحية المحرقة بالقرب من دهشور، وأن مماليكه اجتمعوا، وأمَّروا عليهم شاهين بك، وذلك بإشارة أستاذهم وأن طائفة أولاد علي انفصلوا عنهم ورجعوا إلى بلادهم وآخرين يطلبون الأمان.

فاشتبه الحال وشاع الخبر، وصارت الناس ما بين مصدق ومكذب، واستمر الاشتباه والاضطراب أيامًا، حتى إن الباشا خلع على ذلك المخبر بعد أن تحقق خبره فروة سمور، وركب وشق من وسط المدينة والناس ما بين مصدق ومكذب، ويظنون أن ذلك من مكايده وتحايلاته لأمور يدبرها، إلى أن حضر بعض الخدم إلى دوره وأخبروا بحقيقة الحال، كما ذكر فعند ذلك زال الاشتباه، وعد ذلك من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتى إنه قال في مجلس خاصته:

- الآن ملكت مصر

ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا إلى ناحية قبلي. ثم إن الباشا أرسل إلى أمراء الألفي مكاتبة يستميلهم، ويطلبهم للصلح ويدعوهم للانضمام إليه ويعدهم أن يعطيهم فوق مأمولهم، وجاء جواب الرسالة من أمراء الألفي للباشا وعليه ختم شاهين بك وباقي أقرانه خشداشينه الكبار، مصطفى كاشف أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي، ومن كان كاتبهم بالمعنى السابق يذكرون في جوابهم:

"إن كان سيدهم قد مات وهو شخص واحد، فقد خلف رجالًا وأمراء وهم على طريقة أستاذهم في الشجاعة والرأي والتدبير، ونحو ذلك. وليس كل مدع تسلم له دعواه، ومن أمثال المغاربة "ما كل حمراء لحمة ولا كل بيضاء شحمة".

وذكروا في الجواب أيضًا أنه إن أصطلح من كبرائهم الكائنين بقبلي وهم إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن وباقي أمرائهما كنا مثلهم، وإن كان يريد صلحنا فليعطنا ما كان يطلبه أستاذنا من الأقاليم، ونحو ذلك. وهكذا مات الألفي وطاب لمحمد علي ملك مصر، وكان البرديسي قد مات قبله بحوالي شهرين، أما من تبقى من أمراء المماليك فلا وزن لهم عند الباشا، والطريف أن محمد علي عند سماعه خبر وفاة عدوه اللدود لم يصدق ذلك، إذ احتفظ بالبدوي الذي أتاه بالخبر لمدة أربعة أيام لحين التحقق منه، وعندما تأكد الخبر السعيد له، أهداه فروة وأغدق عليه الذهب، ثم أمره أن يجوب شوارع المدينة معلنًا الخبر.

وكانت وفاة الألفي مفاجأة سارة بالنسبة للقنصل الفرنسي دروفيتي، فحاول الوقوف على أسباب وفاته عن عمر يناهز خمسًا وخمسين عاما كي يرسل الخبر لحكومته، فوفاة الألفي قد تنهي محاولات هيمنة بريطانيا على مصر. ويقوم بإعلام تاليران مستبعدًا بشكل كبير فرضية الاغتيال إذ يكتب: "أتشرف أن أعلن لمعاليكم على وجه السرعة نبأ وفاة الألفي بك في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، وهناك رأيان لدى أتباعه، فهناك من يُرجع ذلك إلى نوبة غضب حادة ألمت به، وجعلته يهوي بعصا غليظة على رءوس أربعة من البدو من بينهم شيخ القبيلة، في حين يدّعي بعضٌ أن التقيؤ والتشنجات العصبية التي توفي على إثرها كانت نتيجة لسُم دسته

نساؤه، ومن بينهن ابنة الشيخ الذي قتله، وقبل موته كان قد اختار شاهين بك خليفة له"

وكان الإنجليز قد وعدوا الألفي قبل وفاته بإرسال قوة بريطانية إلى مصر لتنفيذ مخططاتهم وتدعيم مركزه، وظل ينتظر هذه القوة دون جدوى حتى اضطر إلى مغادرة البحيرة، ثم مات قبل وصول الإنجليز. ويُقال أن أحدهم قد سمعه يهمس قبل أن يسلم روحه قائلًا:

– كل شيء انتهى، من الآن فصاعدًا ستصير مصر لمحمد علي، لا أحد سيملك القوة للوقوف في وجهه.

وكان محمد علي قد قال عنه من قبل:

– لن أنعم بالسلام ما دام الألفي حيًّا، نحن نشبه راقصين على حبل مشدود مع اختلاف أن له عكازين في رجليه.